﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [الأحقاف: 35]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الصَّبرُ عنوانُ الفلاحِ وقاعدةُ الثَّباتِ في الوصولِ إلى غاية البلاغ

لمّا ذكرتِ الآيات السّابقة القريبة حال الكافرين في إنكار البعث، وعدم إعمال القلب والعقل في الوصول إلى الحقِّ والإذعان إليه، أو لمّا ذكرت آيات السّورة بأكملها أحوال المكذِّبين بالرِّسالة، والاستهزاء بالنَّبيِّ ﷺ، وما ذكره بشأن كفر عادٍ بنبيِّ الله هود عليه السلام، وإيمان الجنِّ الَّذين استمعوا القرآن، فأنصتوا له؛ ناسب بعد ذلك كلِّه بما يكون ختامًا للسّورةِ بأكملها، وما يكون مناسبًا للآيات السّابقة لها أن يأتيَ الأمرُ للنَّبيِّ ﷺ بالصَّبر على ما لقيه من قومه من أذى، وضرب له المثل بالرُّسل أولي العزم؛ ليكونوا سراجًا منيرًا في قابل أيّام الدَّعوة في الصَّبر والاحتساب.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُوْلُواْ﴾: أولوا بِمَعْنَى ذَوو لا يُفْرد له واحِدٌ ولا يُتَكَلَّمُ به إلّا مُضافًا، كقولك: أولوا بأْسٍ شَديدٍ وأولوا كَرَم، كأنَّ واحِدَهُ أُلٌ، والواو لِلجَمع[1]، وقيل: أُولو، والمُؤَنَّثُ أُولاتُ، والواحِدُ: ذو[2]، وأُلات للإناث واحِدَتُها ذاتٌ، تَقولُ: جاءَني أولو الألباب وأولات الأحْمال[3]. ولا يُقال إلّا للجميع من النّاس وما يشبهه[4]. والمقصود بأولو في الآية: ذوو، بمعنى أصحاب.

(1) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (ألل).
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة: (ألل).
(3) الجوهري، الصحاح: (ألل).
(4) الخليل، العين: (ألل).

2) ﴿ٱلْعَزْمِ﴾: (عزم) أصل يدلّ على القطع والصرامة، فلا مثنويّة فيه[1]، وهو "ما عُقِدَ عَلَيْهِ القَلْبُ مِنْ أمرٍ أنْتَ فاعِلُهُ، أيْ مُتَيَقِّنُهُ"[2]، والعَزمُ: الجِدُّ، عَزَم على الأمر يَعْزِم عَزْمًا ومَعْزِمًا، وعُزْمانًا، وعَزيمًا، وعَزيمة، وعَزَم الأمر: عُزِم عَلَيه، وفي التَّنزيل: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [محمد ﷺ: 21]، وقد يكون أرادَ عَزم أرباب الأمر، و﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾: الَّذين عَزَموا على أمر الله فيما عهد إليهم[3].

3) ﴿يَلْبَثُوٓاْ﴾: (لبث) أصل يدلّ على تمكّث[4]، ولَبِثَ بالمكان: أقام به ملازمًا له، قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [العنكبوت: 14]، ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾[5]، أي: لم يمكثوا في الدُّنيا سوى ساعة ووقت قصير من ساعات النَّهار وأوقاته.

4) ﴿بَلَٰغٌ﴾: (بلغ) أصل واحد، وهو الوصول إلى الشّيء[6]، فبلغْتُ المكان بلوغًا، أي: وصلْت إليه، وكذلك إذا شارفْت عليه، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ [البقرة: 234]، أي: قارَبْنَه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق: 3]، أي: يبلّغ ما يريد، وبلغ الغلام: أدرك، وبلغ في الجودة مَبلغًا، وشيء بالغ، أي: جيّد، والبَلاغة: الفَصاحة، والبُلْغَة: ما يُتَبَلَّغُ به من العيش.

والبَلاغُ: الكِفاية، وهو الاسم من الإبلاغ والتَّبليغ، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: 52]، أي: هذا القرآن ذو بَلاغٍ للنّاس، أي: ذو بيان كافٍ يوصل إلى منتهى المراد، وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ﴾، أي: ذلك بَلاغٌ[7] كافٍ لمن أراد وتنبّه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُخاطب الآية الكريمة محمَّدًا ﷺ بأن يصبر كصبر أولي العزم من الرُّسل، فأنت لست بدعًا من الرُّسل في ملاقاة المدعوين وتحمُّل أذاهم، والصَّبر على المشاق، فصبرُك

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (عزم).
(2) الخليل، العين: (عزم).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (عزم).
(4) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (لبث).
(5) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (لبث).
(6) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (بلغ).
(7) الصغاني، العباب الزاخر: (بلغ).

على دعوتهم واحتمالِ أذاهُم أعذرُ لهم وأقطعُ لحُجَجهم، ولك في ذلك الصَّبرِ أسوةٌ بإخوانك المرسلين، أصحابِ العزائم الثّابتة الجادَّة، ممَّن قصصنا عليك أخبار جلَدهم في دعوتهم أقوامَهم، وصبرِهم على إيذائهم.

الصَّبرُ وعدم الاستعجال للمكذِّبين بالعذاب، ففي القرآن البلاغ وفي الآخرة الجزاء

ولا تستعجل إنزالَ العقاب بهؤلاء المشركين المتعنِّتين، فمآلُهم مهما طالت دنياهم إلى ذلك العقاب الَّذي ينتظرهم، وفي هذا القرآن الكريم، وفي هذا البيان الواضح كفايةٌ لهم ولغيرهم، وتذكير وافٍ لمن أراد أن ينتفع به من أصحاب العقول الواعية، وإلّا فالهلاك والعذاب الأبديُّ المقيم مخصوصٌ بالخارجين عن الحقِّ، المتمرِّدين على دين الله تعالى القويم، المكذِّبين للرَّسول الكريم ﷺ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاء ودلالتها:

تحتملُ الفاء التَّفريع والفصيحة والعطف

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ تحتمل أن تكون تفريعيَّة على ما تقدَّم[1]، فهي تُفرِّع توجيهه ﷺ إلى الصَّبر على وعيد الكافرين: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾.

وتحتمل أن تكون الفصيحة، فهي مؤذنة بشرط محذوف، فالجملة بعدها "واقعة في جواب شرط مقدَّر، أي: إذا كان عاقبة أمر الكفرة ما ذُكر؛ فاصبر على ما يصيبك من جهتهم، أو إذا كان الأمر على ما تحقَّقْتَه مِن قدرته تعالى الباهرة؛ فاصبِرْ"[2].

وتحتمل أن تكون "الفاء عاطفة هذه الجملة على الجملة من أخبار الكفّار في الآخرة، والمعنى بينهما مرتبط، أي: هذه حالهم مع الله، فلا تستعجل أنت، واصبر، ولا تخف إلّا الله"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 66.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 190.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 451.

دلالةُ التَّعبيرِ بمفردة الصَّبر:

الـصَّـبرُ حـبْسُ الغيظ وتحمُّلُ الأذى وعـدم الاكـتراث بالشَّنائع

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الصَّبر في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾؛ لحثِّ النَّبيِّ ﷺ على احتمال عنَت مشركي مكَّة، واحتمال سوء أدبهم معه ﷺ بتكذيبه وتكذيب القرآن الكريم، ويمتاز لفظ الصَّبر في كونه يحمل معنى حبْس النَّفس عن الجزع، وحَبْس اللِّسان عن الشَّكوى، وحبْس الجوارح عن التَّشويش[1]، والمقصود به هنا: "الوقوفُ لِحُكم الله تعالى، والثَّبات مِن غير بَثٍّ ولا استكراه"[2]، وهو ما تحلَّى به الرَّسول ﷺ في حياته كلِّها.

غرضُ الأمر بالصَّبر:

الأمـرُ بالثَّبات عـلى السُّـلـوك الفاضل إلهابٌ وتهييجٌ بغرض الاستدامة

الأمر في قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، فيه مزيد حثٍّ على المداومة على ما هو عليه ﷺ من الصَّبر، بغرض تطييبِ خاطره، كما قال له الحقُّ تعالى في موضع آخر: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: 8]، وإلّا فالرَّسول ﷺ كان صابرًا على الدَّوام، ولم ينل منه الجَزَع قطُّ، فالأمر بالصَّبر هنا يجري مجرى الأمر بالتَّقوى في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ [الأحزاب: 1]، فيكون محمولًا على الإلهاب والتَّهييج.

كما أنَّ الأمرَ بالصَّبر يحملُ تهديدًا للمشركين بالعذاب الَّذي ينتظرهم، والَّذي نُهي النَّبيُّ ﷺ ألّا يستعجل وقوعه بهم، فهُم سائرون إليه، وسيلقونه عمّا قريب، وفي الأمر بالصَّبر إيماءٌ إلى أنَّ قومَهُ لن يُعذَّبوا في الدُّنيا، وإنَّما سيؤجَّل عذابهم إلى الآخرة[3].

تعيينُ مرجعِ ضمير الخطاب:

الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ أصـالـةً ولأمَّته تبعًا

المخاطَب بضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ

(1) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: (صبر).
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 402.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 301.

﴿ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ هو الرَّسول ﷺ؛ لأنَّه ﷺ المخاطَب الأوَّل بنصوص القرآن الكريم، فعليه أُنزل، وبه كُلِّف، وإلى ذلك يَجِدُ كلُّ داعٍ وكلُّ مسلم في هذا الأمر زادًا يتزوَّد به؛ لأنَّ القرآنَ الكريم أيضًا خطاب للأمَّة، ومنه يستمدّون زاد الأرواح، فالخطاب للنَّبيِّ ﷺ أصالة، ولأمَّته تبعًا للاقتداء به.

نكتةُ حَذْفِ متعلِّق فعل (اصبر):

الصَّبرُ يكون على كلِّ خيرٍ مأمولٍ وكلِّ حقٍّ مطلوب

حُذِف متعلِّقُ فعل (اصبر)، والتَّقدير بحسب السياق: اصبر "على ما أصابك في الله مِن أذى مكذِّبيك مِن قومِك الَّذين أرسلناك إليهم بالإنذار"[1]، وقد "امتثل ﷺ لأمر ربِّه، فصبر صبرًا لم يصبره نبيٌّ قبله، حتّى مكَّن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان وأمَّته على الأمم، فـ ﷺ تسليمًا"[2].

فنكتةُ إطلاق فعل الصَّبر هنا عن التَّقييد بمتعلِّق محدَّدٍ: توجيه الإنسان إلى تعميم جهات الصَّبر وربطه بكلِّ متعلِّقاته من الفعل والتَّرك، مِن صبرٍ عن فِعْلِ ما يُحبُّه بطبعه، ويأباه له الدّين، وصبرٍ على فعل ما يكرهه، ويَنْدُبُه الدّين إلى فعله.

نوعُ الكاف ودلالتها:

تأمُّلُ صبرِ الرُّسل المكرَمين عبادةٌ يقرُّ بها أصحابُ القلبِ المتين

(الكاف) في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أداة تشبيه، تَعقِد مشابهة بين الصَّبر الموجَّه للرَّسولِ ﷺ، وصبر أولي العزم من الرُّسل، فذلك هو الصَّبر النّاجع والمعين على تبليغ الدّين، وبقدر حظّ الداعي إلى الله تعالى منه يكون توفيقُه في أداء مهمَّته في الدَّعوة، ففي التَّشبيه دعوةٌ لتأمُّل قصص الرُّسل السّابقين؛ للاقتداءِ بهم، ومن وراء ذلك دعوةٌ للمؤمنين الدُّعاة ممَّن يحرص على الامتثال لقيم الحقِّ المبين.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 176.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 784.

دلالةُ استعمال (ما):

اقتداءُ الفاضلِ بالمفضولِ توجيهٌ ربّـانيٌّ بـأمـورٍ معتبرة

(ما) في قوله تعالى: ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾ مصدريَّة، أي: فاصبر صبرًا كصبر أولي العزم من الرُّسل، أي: صبرًا عامًّا مثل صبر أولي العزم، "فإنَّكَ من جُملتِهم، بل من عِليتِهم"[1]، فالتَّشبيه دائرٌ حول صفة الصَّبر، والاقتداء بجملة أولي العزم من الرُّسل، وهذه الآية أصلٌ في اقتداءِ الفاضلِ بالمفضولِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أُوْلُواْ﴾:

مَـنِ امتُحِن في الـلـه، فـصبر؛ لَحِق بفضيلة أولي العزم

في إيثار التَّعبير بصيغة ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾ إشادة بهم - عليهم جميعًا أتمُّ الصَّلاة وأزكى السَّلام - فهي تُصوِّر العزم كأنَّه صار ملكًا لهم، وهم أصحابه ومالكوه.

و﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾ هم الَّذين كان منهم الصَّبر من المعاملة مع قومهم، وقيل: هم الَّذين كانوا أبدًا المتيقِّظين، القائمين بأمر الله، الحافظين لحدوده[2]، و"الذين امتُحِنوا في ذات الله في الدُّنيا بالمِحَن، فلم تزدهم المحن إلّا جدًّا في أمر الله، كنوح وإبراهيم وموسى ومن أشبههم"[3].

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلْعَزْمِ﴾:

الـجـدُّ والـصَّـبر عـنـوانُ أولي الـعـزم من الرُّسل والأولياء

(أل) في ﴿ٱلْعَزْمِ﴾ للكمال، فهي تدلُّ على أنَّ عزْمَ الأنبياء هو ﴿ٱلْعَزْمِ﴾ الكامل الجدير بالعَزميَّة، فإنَّهم ﷺ أوْلى النّاس بالعزم الشَّديد الحديد، فقد "فارقت نفوسُهم الشَّهوات والمُنى، فبذلوا نفوسَهم لله صدقًا لاتِّفاق النَّفس والقلب على البذل"[4].

والعزم: نيَّةٌ محقَّقَة على عملٍ أو قول دون تردُّد، وقوامه الصَّبر على المكروه وباعثه التَّقوى، وقوَّته شدَّة المراقبة بألّا يتهاون المؤمن عن

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 90.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 260.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 177.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 190.

محاسبته نفسه[1]، "ومطلق الجدِّ والجهد والصَّبر موجود في جميع الرُّسل، بل الأنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام وكثيرٍ من الأولياء"[2].

نوعُ ﴿مِنَ﴾ ودلالتها:

تحتمل (من) أن تكون للبيان، فيدخل جميعُ الرُّسل وتحتمل التَّبعيض

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ تحتمل أن تكونَ بيانيَّة، تبيّن الجنس الَّذي يُشَبَّه صبرُه ﷺ بِصبرِه، وذلك على قول من قال بأنَّ الرُّسل كلَّهم أولو عزم، والقيد ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ "في موضع الحال، فيكون ﴿أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ﴾ صفةَ جميعِهم، أي: فاصبِر، كَما صَبَرَ الرُّسل المُجِدّون المجتهدون في تبليغ الوحي"[3]، فكأنَّه "لمّا تشوف السّامع إلى بيانهم؛ قال: ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ عليهم الصَّلاة والسَّلام"[4].

وتحتمل أن تكون تبعيضيَّة، ولا بُدَّ حينئذٍ مِن بيان هذا البعض؛ ليظهر وجْهُ التَّخصيص، وتوجيهُ تخصيص بعضهم ﷺ بوصف ﴿أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ﴾ أنَّ المرادَ مَن له جدٌّ وجهد تامٌّ في دعوته إلى الحقِّ، وذبِّه عن حريم التَّوحيد وحمى الشَّريعة، بحيث يصبر على ما لا يطيقه سواه من عوارضه النَّفسيَّة والبدنيَّة، وأموره الخارجيَّة، كمبارزة كلِّ أهل عصره، كما كان لنوح ﷺ، أو لِمَلِكٍ جبار في عصره وانتصاره عليه من غير عدَّة دنيويَّة، كنمروذ إبراهيم ﷺ[5].

وقد تنوَّعت أقوال العلماء في تحديد أولي العزم من الرُّسل، أ هُم أربعة؟ أو خمسة؟ أو ستة؟ إلى آخره.

والرَّأي على أنَّهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمَّد، صلوات اللّه وسلامه عليهم، وقد كان الرَّسول ﷺ يَعرف عن يقين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 67.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 461.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 191.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 190.
(5) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 462.

مَن هم أولو العزم من الرُّسل؟ وذلك ليتأتَّى تحقيقُ التَّشبيه، أمّا غير الرَّسول؛ فإنَّه ليس مطالبًا، بأن يعرف مَن هم أولو العزم من الرُّسل، وإن كان هذا لا يمنع من أن يكون لنا في رسول الله أسوة، في مقام الصَّبر على ما نُبتلى به من شدائد[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلرُّسُلِ﴾ دون (الأنبياء):

التَّعبيرُ بالرَّسول أعمُّ من النَّبيّ، فناسبه الوصف بأولي العزم

التَّعبير بـ ﴿ٱلرُّسُلِ﴾ أنسبُ لوصف ﴿ٱلْعَزْمِ﴾ - وإن كانوا جميعًا أولي عزم كما سبق القول - لأنَّ الرَّسول هو مَن اختصَّه الله تعالى بسماع وحيٍ بِحكم شرعيٍّ تكليفيٍّ، وأُمِر بتبليغه، والنَّبي مَنِ اختصَّه الله ﷻ بسماع وحيٍ بحكم شرعيٍّ تكليفيٍّ سواء أُمر بتبليغه أم لا، وبذلك يكون الفرق بين الرَّسول والنَّبيِّ: أنَّ كلَّ رسول نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا[2]، فالرَّسول أرسخ في باب الصَّبر، وهو أحوج إلى العزم الشَّديد والصَّبر الحديد؛ ليَقوَى على مواصلة دعوته لكلِّ وديعٍ وفظيع، ويقتدي بالرُّسل النَّبيّون.

علَّةُ الوصلِ بين جملتي الإنشاء:

فعلُ الفضل في الصَّبر، وترك الدُّعاء بالعقابِ فضيلتان متآزرتان

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ عاطفة، تجمع في نصحه وإرشاده ﷺ، وإرشادِ كلِّ داعيةٍ بعده بين فِعل الصَّبر وترك الاستعجال، وكان حقُّ هذا الموضع - فيما يظهر - الفصل لكمال الاتِّصال بالتَّوكيد؛ إذ ترك الاستعجال هو عينه فعل الصَّبر.

لكن (الواو) في جملة: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ آذنت بأنَّ المقصود سوْقُ كُلٍّ منهما مساقًا مستقلًا؛ بحيث يَبدوانِ نُصحَيْنِ وإرشادين مستقلَّين؛ تقريرًا لفكرة الاستقلال؛ تطهيرًا لنفسه الشَّريفة ﷺ من كُلِّ حُزْن يُؤْذي، فكانت الواوُ للتوسُّط بين الكمالين؛ إذ عطفت إنشاءً على إنشاء، فالصَّبرُ هو تحمُّل الأذى، وعدم الاستعجال تركُ الدُّعاء

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 300.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 1/ 162.

عليهم أو العقاب، فالأوَّل فضلٌ في الفعلِ، والآخر فضلٌ في التَّرك، وبهما يكون النُّبلُ في مسيرة العظماء.

غرضُ النَّهي عن الاستعجال:

الحلمُ بالمدعوِّ مسلك أصحابِ الحقِّ وأهل العزم

(لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ ناهية، وفي هذا النَّهي كناية عن إحاطة قدرته الله تعالى بهم، فإنَّه "لا يَعْجَلُ بالعقوبة إلّا مَن يخاف الفَوْت"[1]، وإلى ذلك فقد "أمره سبحانه بالصَّبر ونهاه عن استعجال العذاب لقومه رجاء أن يؤمنوا"[2]، فغرض النَّهي الحلم بالمدعوّين، في توجيه الدُّعاة بالصَّبر والتَّريُّث بمن يدعوهم.

دلالةُ التَّعبير بصيغة (الاستعجال):

تركُ الدُّعاء على الكافرين أمارةُ تصبُّرِ المرسلين

معنى النَّهي عن (الاستعجال) في جملة: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل﴾، أي: "لا تدعُ لهم بتعجيل العذاب، فإنَّه نازل بهم - لا محالة - وإن تأخَّر، وأنَّهم مستقصِرون حينئذٍ مدَّة لُبْثِهم في الدُّنيا حتّى يَحسبوها ساعَةً مِن نَهارٍ"[3]، فـ "المُنقَضي من الزَّمان إنَّما يصير عدَمًا، فكثيره الَّذي ساءت عاقبتُه كالقليل"[4]، والمقصود بالسّين والتّاء توكيد الطَّلبِ في جملة النَّهي، ففيه توجيهه ﷺ بعدم الاقتراب مِن العجلة بطلب العقوبة لقومه أصلًا.

دلالةُ المضارعةِ في فعل ﴿تَسْتَعْجِل﴾:

الأمرُ بالتَّريُّثِ والحلمِ بالمدعوّين معذوقٌ بإيمانِهم أو موتِهم

من دلالات المضارعة في الفعل ﴿تَسْتَعْجِل﴾ أنَّ النَّهي الدّاخل على الاستعجال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل﴾ مسلَّط على المادَّة اللُّغويَّة للاستعجال، وكذلك على صيغتها الصَّرفيَّة، أي: المضارعة؛ ليخلص المعنى إلى الصَّبر الثّابت الدّائم؛ ليسفر ذلك

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 21/ 385.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 33.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 313.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 107.

عن نقيضهما، ونقيض الاستعجال الحلم والصَّبر والتُّؤدة، ونقيض التَّجدُّد والحدوث الثُّبوت والدَّوام.

غرضُ حذف متعلّق فعل ﴿تَسۡتَعۡجِل﴾:

حذف النَّظم الكريم متعلَّقَ فعلِ الاستعجال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ لمعرفته من السّياق، والتَّقدير: ولا تستعجل حلولَ الهلاكِ أو نزولَ العذابِ لأجلهم، فإذا كان طلبُ نزول العذاب منهيًّا عنه فعلًا؛ كان من تمام الاتِّساق طيُّ النَّظم الكريم إيّاه، وكان الإمساك عنه قدوةً بين يدي المخاطَب ﷺ.

فـي صـورة الـتّراكـيـب القرآنيَّة امتثالٌ لَفظيٌّ لِتكاليفها العَمليَّة

نوعُ (اللام) ودلالتُها:

(اللام) في قيد ﴿لَّهُمۡۚ﴾ لام تعدية فعل الاستعجال إلى المفعول لأجله، أي: لا تستعجل لأجلهم، وبسببهم، ولغاية الانتقام منهم[1]، ففيها معنى التَّعليل.

تعيينُ مرجع الضَّمير المجرور:

يعودُ الضَّمير المجرور في القيد ﴿لَّهُمۡۚ﴾ إلى كفّار مكَّة، ويُلمَح في التَّعبير عنهم إضمارًا إدراجُ كلِّ صنوف الكفّار والمنافقين تحت هذا الوعيد الشَّديد، وعمومهم بالتَّهديد، بخلاف النَّصِّ على فريقهم بخاصَّة، فلأنَّه ربَّما أوهم اختصاصهم بالحكم دون سواهم، وهذه الآية من آيات السُّننِ في التَّعاملِ مع عمومِ المدعوّين.

سـنَّـةُ الـلـه فـي مـعـاملةِ المدعوّين واحدةٌ

علَّةُ فصل جملة: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ﴾:

فُصلت جملة: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ﴾ عن جملة: ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ إمّا لأنَّها من كمال الانقطاع؛ إذ الأولى نهيٌ والثّانية خبر، وتحتمل أن تكون استئنافًا بيانيًّا؛ إذ تُجيب هذه الجملة عن سبب النَّهي عن الاستعجال، فجاء الجوابُ

كـلُّ آتٍ قـريـبٌ، فـلا مـقـتـضى لـلـعـجـلـة على عقوبة المجرمين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 67.

بأنَّ عذابهم آتٍ، وكلُّ آتٍ قريبٌ، فلمّا "كان ما أُمِر به، ونُهِيَ عنه الرَّسول ﷺ في غاية الصُّعوبة؛ سهَّله الله تعالى بقوله مستأنفًا: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ﴾، أي: في الدُّنيا عند الموت مثلًا، أو في الآخرة وقت العَرْض والحساب والهَوْل الأعظم الأكبر الَّذي تقدَّمت الإشارةُ إليه، والتَّحذير منه لأهل المعاصي والبشارة فيه لأهل الطّاعة"[1]، وتحتمل أن تكون من باب كمال الاتِّصال بالبيان التَّعليلي الضِّمنيِّ، فهي "تعليل للنَّهي عن الاستعجال لهم بالعذاب بأنَّ العذابَ واقعٌ بهم، فلا يؤثِّر في وقوعِه تطويلُ أجلِه ولا تعجيلُه"[2].

بلاغةُ التَّشبيه وغرضه:

السّاعةُ كنايةٌ عن قِصَر العمرِ وسرعة انقضائه

(كأنَّ) في جملة: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۚ﴾ حرف تشبيه، تُشبه الجملة حياتَهم كلَّها في الدُّنيا بأنَّها ساعةٌ من نهارٍ، وهذه السّاعةُ كنايةٌ عن قِصَر العمر وسرعة انقضائه.

نكتةُ تقديمِ الظَّرف على الخبر:

تنبيهُ المخاطَبين على خطورة اليوم الآخر

المقصودُ باليوم في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ يوم الموت، أو الآخرة وقت العَرض والحساب والهولِ الأعظم الأكبر[3]، وفي تقديمه في جملة ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ على خبر (كأن)، وهو ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ تنبيهٌ إلى ما ينتظر منكري البعث في يوم الحساب، الَّذي يُذهلهم عن مُدَّة لُبثهم في الدُّنيا لِهول ما فيه، وعِظَم أحداثه، ومشقَّتها عليهم، ويقرِّر تقديمه أنَّ العِبرة في هذا الخبر تتعلَّق بهذا الظَّرف ومخاطِره، وأنَّ حلوله سبب هولهم وذهولهم.

نوعُ الرُّؤيةِ ومعناها:

الرُّؤية في جملة: ﴿يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ رؤية بصريَّة ينشأ عنها

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 191.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 67.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 191.

العلم؛ إذ إنَّ الكافرين في اليوم الآخر يبصرون أسباب العذاب بأعينهم، ويعالجون إيلامه مباشرة، ولم يَعد رؤيته علميَّة بطريق الخبر مثلما كان في الدُّنيا، فهنالك يرونه عين اليقين.

الكافرون يرون العذابَ يوم القيامة عين اليقين

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارع في فعل ﴿يَرَوْنَ﴾:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة المضارع ﴿يَرَوْنَ﴾، وهو فعل مستقبليٌّ؛ لتصوير المشهد الغيبيِّ، وما يكون فيه من الحسرةِ والنَّدامةِ على الضَّياع.

نكتةُ بناء فعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ للمفعول:

قد يُحذَفُ الفاعلُ من التَّركيب لِلَفتِ المتلقّي لمعنًى آخر

آثر النَّظم الكريم بناء فعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ للمفعول؛ دلالةً على تعيُّنه والعلم به، فالمتوعِّد لهم معروفٌ، وهو الله ﷻ، ففي طيِّ ذِكره إيجاز، ويوفِّر عناية المتلقّي على وعي الوعيد نفسه بِقطع النَّظر عن فاعله، فقد "بناه للمفعول؛ لأنَّ المُنْكِئَ هو الإيعاد لا كونه من معيَّن"[1].

علَّةُ التَّعبيرِ عن الخبرِ بالموصول:

الموصول عنصر إيجاز وإيماء إلى المقصود

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالموصول ﴿مَا﴾ في جملة: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ دون الاسم الصَّريح (عذاب الله)؛ لإتاحة ذكر جملة الصِّلة ﴿يُوعَدُونَ﴾ بما فيها من لطائف الإشارات، إضافة إلى ما في الموصول من إفادة عموم أنواع العذاب المنطوية في هذا اللَّفظ اليسير ﴿مَا﴾، فهو لفظُ إيجازٍ، فيشملُ كلَّ أنواع العذابِ بما يوحي به من عموم الدَّلالة.

دلالةُ المضارع في فعل ﴿يُوعَدُونَ﴾:

بيانُ الواقعِ والإشارةُ إلى المستقبلِ

إيثارُ المضارعة في بناء فعل الوعد ﴿يُوعَدُونَ﴾ يلائم، ويواكب زمان الدَّعوة، وهو الحياة الدُّنيا الحاليَّة على امتدادها، فَدُعاةُ كلِّ جيل يمارسون دعوة جيلهم، وتتجدَّد دعوتهم لأهل زمانهم،

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 191.

فالمضارعة في الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ حقيقةٌ مطابقة لِزمان الدَّعوة متى كانت، ففيها إشارةٌ إلى أنَّ دعوةَ الرَّسول ﷺ كانت متجدِّدة في قومِه، وكذلك هي متجدِّدة فيمن جاء بعده من أتباعه.

بلاغةُ استعمالِ مفردة اللُّبث:

تحسيرُ الكافرين على أملِهم المتوهَّم في الحياةِ الدُّنيا

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة اللُّبث في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۚ﴾ إشارة إلى فترة توطُّنهم في هذه الحياة الدُّنيا، وتلبُّثهم وتمسُّكهم بعرضها الفاني، واللُّبث هو طول المكث، فكان في نفي لبثهم في الدُّنيا إلّا ساعة من نهار، مزيد تحسُّرٍ لهم، وتهكُّم بما أمَّلوه في هذه الحياةِ الدُّنيا من طول الحياةِ، والاستزادة من شهواتِها.

غرضُ حذفِ متعلِّق فعل: ﴿يَلْبَثُوٓاْ﴾:

عمرُ الإنسانِ على التَّحقيقِ ساعةٌ من نهار

حُذِفَ متعلِّق فعل اللُّبث في جملة: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾، والتَّقدير: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ "في الدُّنيا حتّى جاءهم العذاب، أو ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في قبورهم حتّى بعثوا للحساب"[1]، وغرضه إفادة عموم النَّفي؛ تهيئةً لِبناء القصر في الجملة على المبالغة في نفي لُبثهم فيها أصلًا إلّا جزءًا يسيرًا من أجزاء نهار صغير.

بلاغةُ القصرِ بالنَّفي والاستفهام:

الهلاكُ الدّائم المؤبَّد قَصْرٌ على الخارجين عن دين الله تعالى

جاء التَّعبيرُ بأسلوب القَصْر بطريقة النَّفي والاستثناء؛ تأكيدًا على صحَّة هذا الحكم العجيب ودقَّتِه؛ لأنَّ الإنسان الكافر يعتقد أنَّ عمره، وهو في الدُّنيا طويلٌ، وأنَّه نهاية المطاف ما صرَّحوا به في قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾ [الجاثية: 24]، فجاء الحكم بقِصَر الدُّنيا قِصَرًا عجيبًا بتشبيهها بلحظاتٍ مرَّت خاطفةً من نهارٍ مرَّ هو أيضًا خاطفًا.

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 289.

وقد "أفاد الاستثناء أنَّ غيرهم لا يهلكون هذا الهلاك، أو هم الَّذين آمنوا، وعملوا الصّالحات"[1]، و"كأنَّه يقول: لا يهلك الهلاك الدّائم المؤبَّد إلّا القوم الفاسقون، وإلّا الهلاك الَّذي ليس هو بالهلاك الدّائم المؤبَّد ممّا يهلك الفاسق وغير الفاسق؛ إذ يكون حقًّا على الكلِّ.

أو يقول: لا يهلك هلاك العذاب إلّا الفاسق، فأمّا الهلاك الَّذي هو هلاك النَّجاة والفوز عن شدائد الدُّنيا؛ فممّا يهلك به الصّالح"[2].

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿سَاعَةَ﴾:

الإيـمـاءُ إلى سرعة انقضاء العمر ثمَّ قيام السّاعةِ

السّاعةُ في القرآن الكريم تُطلق على معنيين: هما يوم القيامة، والجزء القصير من الزَّمن، وحين يرد لفظ (الساعة) في القرآن الكريم مُعرَّفًا بـ (أل) يكون خاصًّا بالقيامة للحساب، وحين يأتي منكَّرًا (ساعة) يكون خاصًّا بالوقت القصير مطلقًا، وقد جاء لفظ السّاعة منكَّرًا ومعرَّفًا في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ [الروم: 55]، وقد آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿سَاعَةَ﴾؛ لبيانِ قِصَر المدَّة الَّتي يقضيها النّاس في الدُّنيا قياسًا بالآخرة، فهي ساعةٌ سريعةٌ جدًّا، فتمضي، ثمَّ تقوم السّاعة.

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتها:

بعضُ النَّهار كاشفٌ عن حقيقةِ السّاعة

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۚ﴾ تبعيضيَّة، أي: حينما يرى الكافرون طول يوم القيامة وعظيم أهواله يستقلّون مدَّة لُبثهم في الدُّنيا، فيرونه جزءًا من نهار يوم واحد، و"لمّا كانت السّاعة قد يُراد بها الجنس، وقد تُطلق على الزَّمن الطَّويل؛ حقَّق أمرها، وحقَّرها بقوله: ﴿مِّن نَّهَارٍۚ﴾"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 69.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 261.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 191.

توجيهُ تخصيصِ النَّهار بالذِّكر دون اللَّيل:

السّاعةُ من النَّهار أسرع أوقات الغافلين

في تخصيص ساعة النَّهار بالذِّكر دون ساعة اللَّيل كنايةٌ عن السُّرعة الخاطفة؛ "لأنَّ ساعة النَّهار تبدو للناس قصيرة لما للنّاس في النّهار من الشَّواغل، بخلاف ساعة اللَّيل فإنَّها تطول؛ إذ لا يجد الساهر شيئًا يشغله"[1]، ووراء تلك الكناية كنايةٌ أخرى هي المقصود الأهمُّ هنا، وهي بيانُ "شدَّةِ العذابِ وطولِ مدَّتِه"[2] هنالك في الآخرة.

نكتةُ تنكير لفظ ﴿نَّهَارٍ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿نَّهَارٍ﴾؛ لإفادة التَّقليل، كما في حديث الجمعة[3] قوله ﷺ: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم، وهو قائم يصلّي يسأل الله تعالى شيئًا إلّا أعطاه إيّاه»، وأشار بيده يقللها[4].

علَّةُ فصل جملة ﴿بَلَٰغٌ﴾ عمّا قبلها:

البلاغُ خبرٌ جديدٌ يحملُ تحذيرًا نهائيًّا

بلاغ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا بلاغ، على طريقة العنوان والطالع نحو ما يكتب في أعالي المنشورات القضائيَّة كلمة: (إعلان)، والجملة مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا على طريقة الفذلكة والتَّحصيل، مثل جملة: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: 196]، وجملة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: 134].

غرضُ حذف المسندِ إليه:

إقامةُ الجملةِ على ذِكر عنصر واحد يلفت إلى أهمّيّته

حُذِفَ المسند إليه، وهو اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿بَلَٰغٌ﴾؛ لتركيز النَّظر إلى المسند، فهو موضع العِبرة، في كونه بلاغًا للعالمين، والتَّقدير "أنَّ ذلك اللُّبث بلاغ، أو أنَّ هذا القرآنَ بلاغ، أو أنَّ هذا الَّذي وصفه الله تعالى بلاغ، وهو حلول ما وعده من الهلاك في الدُّنيا أو العذاب في الآخرة"[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 68.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 90.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 68.
(4) البخاري، صحيح البخاري، برقم: (893).
(5) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 289.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿بَلَٰغٌۢ﴾:

في اصطفاء مفردة ﴿بَلَٰغٌۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ بَلَٰغٞۚ﴾؛ لبيان أنَّ هذا البيانَ القرآنيَّ قد بَلَغَهم، وانتهى إلى أسماعهم، فلا يلومنَّ كافرٌ بعد ذلك إلّا نفسه، وهذا البلاغُ فيه كفاية للعِظة والاعتبار، والحذر من هذا المصير الأليم، "فهو أفضل زادٍ يتزوَّده الخلائق، وأجلُّ نعمةٍ أنعم الله بها عليهم"[1].

من سمع بالحقِّ؛ فقد بلغه الحقُّ

نوعُ الفاء ودلالتها:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ تفريعيَّة، تُفرِّع انتفاء إهلاك غير الفاسقين، وقصره على الفاسقين فقط على الـ ﴿بَلَٰغٞۚ﴾؛ لأنَّهم هم المشؤومون الَّذين لا ينتفعون بهذا البلاغ، ويخرجون على الحقِّ، ويتمرَّدون عليه، وعلى ذلك فكلُّ من يتأبّى على قبول الحقِّ، فهو فاسقٌ، و"معنى التَّفريع أنَّه قد اتَّضح ممّا سمعت أنَّه لا يهلك إلّا القوم الفاسقون، وذلك من قوله: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 9]، وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢﴾ [الأحقاف: 12] إلى قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣﴾ [الأحقاف: 13]، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ [الأحقاف: 27]"[2].

تفريعُ نفي الإهلاك وحصره في الفاسقين على ذكر المتقدِّمِ في السورة

غرضُ الاستفهامِ وبلاغته بأداة (هل):

المقصودُ بالاستفهام بأداة (هل)، في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ النفي، أي: لا يُهلك إلّا القوم الفاسقون، وهو يحقِّق على الكفّار، فسوقهم وخروجهم من إطار الحقِّ والصَّواب، ويستنطقهم بذلك؛ إرشادًا لأنفسهم على أنفسهم، أي: لا يهلك الله إلّا القوم الفاسقين، واستعمل أداة (هل) دون أدوات النَّفي

الجمعُ بين معنى النَّفي والاستفهام لإثارة الأذهان

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 784.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 69.

الصَّريح؛ لإثارة الاستفهام في أذهان المخاطَبين، فجمعتِ الأداة بين غرضين: النَّفي والاستفهام.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الإهلاك:

لفظ الإهلاك في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ "مستعمل في معنييه: الحقيقيِّ والمجازيِّ، فإنَّ ما حُكي فيما مَضى بعضه إهلاك حقيقيٌّ مثل ما في قصَّة عاد، وما في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ [الأحقاف: 27]، وبعضه مجازيٌّ، وهو سوء الحال، أي: عذاب الآخرة: وذلك فيما حُكي من عذاب الفاسقين"[1]، كما يدخل في معاني الإهلاك العقوبات[2]، والعذاب، أي: لا يقع العذاب إلّا بالعاصين، الخارجين عن أمر الله، وقال قتادة: اعلموا، والله ما يَهلَك على الله تعالى إلّا هالكٌ مشرِك ولَّى ظهره للإسلام، أو منافقٌ صَدَق بلسانه وخالف بعمله، ولهذا قال قوم: ما في الرَّجاء لرحمة الله تعالى آية أقوى وأتمُّ من هذه الآية[3].

تكثيرُ دلالاتِ إهلاك المكذَّبين في الدُّنيا والآخرةِ

دلالةُ بناء فعل ﴿يُهۡلَكُ﴾ لغير فاعله:

بُنِي فعل ﴿يُهۡلَكُ﴾ لغير فاعله؛ "لأنَّ المحذورَ الهلاكُ، وإن لم يعيَّن المهلِكُ، وللدَّلالة على أنَّ إهلاكَهم عليه ﷺ يَسيرٌ جدًّا"[4]، وإلى ذلك فالإهلاك مع البناء لغير الفاعل يقع عليهم بأمر الله تعالى وحكمه من زبانية جهنَّم، ونارها، وسعيرها، وحميمها، وحيّاتها، وعقاربها، فأنواع المهلكات كثيرة، وفواعله كثيرة، طواها كلُّ بناء فعله للمفعول.

أنواعُ المهلكات كثيرة، وكلُّها تقع بأمر الله تعالى

فائدةُ المضارع في فعل ﴿يُهۡلَكُ﴾:

أفاد المضارع ﴿يُهۡلَكُ﴾ على تصوير الإهلاك الَّذي سيقع في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 69.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 784.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 117.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 192.

الفاسقين في الزَّمن المستقبل، وبيان مشهد ذلك في صورةٍ تدعو إلى الحذر والخوف.

بلاغةُ القصر في جملة الفاصلة:

الهلاكُ المؤبَّد في الآخرة وقْفٌ على الفاسقين

من بلاغة القصر في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أنَّه يُدخل جميع أنواع الكفّار تحت وصف الفسق، وهذا دقيق؛ لأنَّ الفسق في اللُّغة الخروجُ مطلقًا، وحمل عليه العِصيان والتَّرْك لأمر الله، والخُروج عَن طَريق الحقِّ، فكلُّ مُهْلَكٍ هلاكَ تأبيدٍ فهو فاسقٌ، وكلُّ كافرٍ فاسق، وكلُّ منافق فاسق، وهكذا يقال في جميع أنواع التَّكبُّر على الدّين والخروج عنه وعليه، وهذا المعنى الكبير لا يلائمه من طرق القصر إلّا طريق النَّفي والاستثناء؛ الَّذي يؤكِّده، ويَنفي عنه صفة التَّجوُّز والادِّعاء، فهو قصر حقيقيٌّ تحقيقيٌّ، يُحدِّد الحكم بقوَّةٍ لِصنف الفاسقين بوضوح.

دلالةُ اجتماع قَصْرَين بطريق النَّفي والاستثناء:

تُمَثِّل خواتيم السّور القرآنيَّة براعة مقاطع بديعة

في هذه الآية الخاتمة للسورة الكريمة اجتمع قصران: **الأوَّل:** ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ﴾، **والثّاني:** ﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾، وسلك كلٌّ منهما طريق النَّفي والاستثناء؛ اتساقًا مع قوَّة الأحكام، وختم البيان عن مصير الكفار، الَّذين رفضوا أن يجيبوا داعي الله تعالى، ورفضوا الإيمان به، وأنكروا قدرته تعالى على الإحياء والبعث في الآخرة، وفي الختم بهذين القصرين براعة مقطع بديع.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡقَوۡمُ﴾:

جميعُ القائمين بالفسقِ موعودون بالإهلاك

(أل) في ﴿ٱلۡقَوۡمُ﴾ لتعريف الجنس، وهو مفيد العموم، أي: كلُّ القوم الفاسقين، فيعمُّ مشركي مكَّة الَّذين عناهم القرآن، فكان لهذا التَّفريع معنى التَّذييل، ولك أن تجعل التَّعريف تعريف العهد، أي: القوم المتحدَّث عنهم في قوله: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا

يُوعَدُونَ﴾، فيكون إظهارًا في مقام الإضمار؛ للإيماء إلى سبب إهلاكهم، وأنَّه الإشراك[1].

نكتةُ ذكرِ لفظ ﴿ٱلْقَوْمُ﴾:

أفاد ذِكرُ لفظِ ﴿ٱلْقَوْمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ معنى "الَّذين فيهم أهليَّة القيام بما يحاولونه من اللُّدد"[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾:

كلُّ مَن خرج عن التَّوحيد والشَّرع فهو فاسق

(أل) في لفظ ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ لاستغراق جنس الفاسقين، فهُم الخارجون عن الدّين والاتِّعاظ به، والعمل بموجبه[3]، وليس المراد بهم عصاة المؤمنين، بل الَّذين فسقوا بالخروج عن مقتضيات الدين والتَّوحيد، والسياق هنا في مشركي مكَّة الَّذين كفروا بالإسلام، فيدخلون دخولًا أوَّليًّا، ويدخل معهم كلُّ من اتَّصف بصفتهم.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة اسم فاعل ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾:

الفاسق عريقٌ في إدامة الخروج عن محيط ما يدعو إليه هادي العقل والفطرة

في صوغ وصف الفسوق اسمَ فاعل ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ دلالةٌ على رسوخ أقدامهم في باب الفسق والخروج عن الطّاعة، والتَّمرُّس على إنكار الوحدانيَّة ومتعلِّقاتها من إحياء الموتى والحساب وغيرهما، وهم "العريقون في إدامة الخروج من محيط ما يدعو إليه هادي العقل والفطرة الأولى من الطّاعة - الآتي بها النَّقل - إلى مضلِّ المعصية - النّاهي عنها والعقل - وأمّا الَّذين فسقوا، والَّذين يفسقون؛ فإنَّ هادي هذه السّورة يردُّهم، ويوصلهم إلى المقصود، فهذا الآخر نتيجة قوله أوَّلها: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [الأحقاف: 3]"[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 69.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 192.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 314.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 192.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والخمسون،
سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 55 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-659-89-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 55 : المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-659-89-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4299298 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"